من وجوه الإعجاز في الذكر الحكيم

ظاهرة المثلث القرائي

أ.د خالد فهمي
كلية الآداب- جامعة المنوفية

لقد استقر في النظر العلمي على امتداد تاريخ العناية بالذكر الكريم وصفه بالكتاب المعجز الذي لا قبل للطاقة البشرية على الإتيان بشيء من مثله.

وقد تنوعت نظريات تفسير إعجاز هذا الذكر الحكيم، واستقلت تآليف متنوعة لفحص هذا الأمر إلى يوم الناس هذا.

وقد كان الانطلاق من تحليل أسلوبه، وفحصه، أساسًا أصيلا على طريق الكشف عن بنيات هذا الإعجاز، وقد جمع الدكتور حسين نصار في كتابه إعجاز القرءان، مكتبة مصر ١٩٩٩م ص: ٢ أقوالا كثيرة جدًا تعول على تفرد أسلوب القرآن الكريم، وبراعته طريقًا للكشف عن إعجازه.

قد استطاع الراحل الكريم الدكتور محمد عبدالله دراز أن يلخص ويوجز هذا المدخل في عبارة مهمة وموفقة قال فيها: إن القرآن الكريم معجزة لغوية على ما قرره في كتابه (النبأ العظيم).

والحق أن تفاصيل هذا الحكم العام ربما أمكن أن نقرر أنها متشعبة لا سبيل إلى الإحاطة بها.

وطبيعة كون الكتاب العزيز كتابًا خاتما منزلا للزمان القادم كله يرشح لفكرة أن كل جيل ادخر له الله تعالى ما يناسب زمانه من وجوه الإعجاز التي تعيد صلته بالذكر الحكيم غضة طرية.

وأعتقد أن قراءة ظاهرة: المثلث القرائي من بوابة الإعجاز يمكن أن تسلكها في إطار وجوه الإعجاز اللغوية التي تدعم حقيقة تزاحم معاني هذا النص العزيز.

٢ – مفهوم المثلث القرائي

المثلث اللغوي ظاهرة معجمية بامتياز، تضم عددًا من الألفاظ التي ينطبق أحد حروف بنيتها ولا سيما الأول منها بالحركات الثلاثة، وهو ينقسم قسمين، أولهما ينتج عن تغاير الحركات تغاير المعاني، وهو الذي يسمى باسم المثلث اللغوي المختلف المعنى، وآخرهما يثبت مع تغاير الحركات أمر المعنى وهو الذي يسمى باسم المتفق أو المؤتلف المعنى.

وقد عرفت المعجمية العربية التراثية عددًا من مصنفات هذه الظاهرة اللغوية من مثل:

– المثلثات لقطرب، ت ٢٠٦هـ.

– المثلث، لابن السيد البطليوسي ٥٢١ هـ.

– إكمال الإعلام بتثليث الكلام، لابن مالك، ت ٦٧٢هـ.

– المثلث اللغوي ذو المعنى الواحد للبعلي ت ٧٠٩هـ.

– الدرر المبثّة في الغرر المثلّثة للفيروزآبادي ت ٨١٦هـ.

ولما روي في الذكر الحكيم بعض من الألفاظ المعربة بالحركات الثلاث في الموضع الواحد تبعًا لقراءات مختلفة، نشأت الحاجة إلى تسمية أمثال هذه الألفاظ مثلثة الإعراب فاستعير المصطلح اللغوي، الذي هو المثلث اللغوي، لإطلاقه على الظاهرة مع تعديل مناسب، ليكون المثلث القرائي، أو ما قرئ بالتثليث من كلمات القرآن.

وبهذا يكون مصطلح المثلث من المصطلحات الرحالة، انتقلت من الجهاز الاصطلاحي اللغوي إلى الجهاز الاصطلاحي في علوم القرآن الكريم، بعد تعديل في مفهومه، ليدل على الكلمة القرآنية التي تقرأ بثلاث حركات، أو تروى بثلاث إعرابات، وهو ما يعبر عنه الرعيني ت ٧٧٩ هـ في مقدمة كتابه (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن) ص٣ بقوله: «إني رأيت من القراءات ما جاء مثلث اللفظ».

٣ – العناية بالمثلث القرائي في التراث العربي

إن تأمل مسألة العناية بالمثلث القرائي تكشف عن وجوه وقفت عليها عدد من المؤلفات المنتمية لعلوم مختلفة، فقد اعتنى بهذه الظاهرة، وبأمثلتها أصناف الكتب التالية:

أ- كتب إعراب القرآن الكريم الموسعة، ولا سيما التي تعنى بإيراد الوجوه الإعرابية المختلفة والتوسع فيها، من مثل الدر المصون، للسمين الحلبي.

ب- كتب التفسير الموسعة ولا سيما التي تعنى بالقراءات وتوجيهها، كالكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

ج – كتب توجيه القراءات.

د- كتب النحو الموسوعية والتعليمية.

وقد ظهر نوع عناية بهذه الظاهرة القرآنية تمثل في ظهور تأليف مستقل، عني بتحرير مفهومها، وجمع أمثلتها من الذكر الحكيم، وبيان ما فيها من وجوه وأعاريب.

وهذا الكتاب هو: (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن).

لأبي جعفر أحمد بن يوسف الرعيني المتوفى ٧٧٩ هـ، يقول محققه الدكتور علي حسين البواب ص٥ من مقدمة التحقيق: «وإذ كان التأليف في المثلث معروفًا وكتبه ومادته مجموعة ومبوبة»، فإن هذا الكتاب ينفرد بأمرين:

أولهما: أنه وجه عنايته للقرآن الكريم، وخص الكتاب بمثلثاته.

ثانيهما: أنه خالف مفهوم التثليث عند أهل العربية (اللغة)».

ومنهج الكتاب جامع بين منهجية الترتيب الألفبائي، ومنهجية الترتيب المصحفي، بمعنى أن الكلمات جاءت مرتبة ألفبائيًا مع مراعاة موضع التثليث على ترتيب

الهمزة والباء والتاء إلخ، ثم مراعاة ترتيب المصحف والسور الكريمة في داخل كل باب.

ففي باب الهمزة مثلًا، جاءت الكلمات المثلثة القرائية التالية: (شُرَكَاء)(سورة يونس)، و(سَوَاء) (سورة فصلت).

وفي باب الباء جاءت الكلمات المثلثة القرائية التالية:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة الفاتحة)،﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾(سورة الأنعام)، ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾(سورة الصافات).

ويبدو أن السر وراء انتهاج هذه المنهجية هو طلب التيسير، وهو الأمر الذائع في التوصل إلى هذه المنهجية، يقول الرعيني ص٣: «فلما يسر الله جمع ذلك كتبته، ليكون تذكرةً للبيب، وتنبيهًا للأريب، ورتبته على حروف المعجم، ليكون أسهل للناظر وأجمع للخاطر».

ومسألة التيسير يكمن وراءها كذلك نوع منهجية تتوخى الجمع وسهولة الاسترجاع.

٤- أسرار ظاهرة المثلث القرائي في الذكر الحكيم

القرآن الكريم كتاب مكتنز بالحكمة، وقضية الاكتناز بالحكمة المدعومة بكونه الكتاب الخاتم للزمن القادم تحتاج إلى قانون أو معيار يتعاطى مع هذه الطبيعة الخاصة، وهو ما أخرج المعيار الذي يقرر أن القرآن الكريم مبني على تزاحم المعاني، بمعنى أنه يلجأ إلى تقنيات بعينها ليستوعب تنوع المعاني وتعددها.

وقد أورث هذا المعيار الذي أطلق عليه معيار تزاحم المعاني في الذكر الحيكم عددًا من التجليات على مستوى البنية ابتداء.

كان من أظهرها وجود كلمات قرآنية قرئت بحركات مختلفة طلبًا لاجتماع المعاني وتنوعها وتعددها.

وبذلك تكون ظاهرة المثلث القرائي القائم على قراءة عدد من الكلمات القرآنية، في الموضوع الواحد بحركات ثلاث توسيعًا للناتج من معناها، وتشعيبًا للمراد من فحواها أساسًا، أو وجهًا جديدًا من وجوه الإعجاز، وبذلك تسهم هذه الظاهرة في الكشف عن أسرار القرآن الكريم، ومرونته واكتنازه وتدفقه بالمعنى.

ومن أمثلة ما جاء في ذلك الكتاب الكلام على إعراب قوله تعالى:

﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ بتحريك همزة سواء بالحركات الثلاثة، وتمام الآية.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾(سورة فصلت:١٠).

و توزيع الإعرابات الثلاثة كما يلي:

أ- إعراب النصب في قراءة السبعة على تقدير كون﴿سَوَآءً ﴾ بمعنى استواء على المصدرية، أي استوت استواء، أو على الحالية من الأرض، أو من الأقوات.

ب -إعراب الرفع في قراءة أبي جعفر من العشرة، وهي إذن خبر لمبتدأ محذوف: أي هي سواء.

ج- إعراب الجر في قراءة زيد بن علي، والحسن وغيرهما وتقديرها أنها نعت لأربعة أيام.

وبهذا تكون الوجوه الإعرابية كفلت لاستواء: للأرض، والأقوات، وللظرفية(فيها)، وللأربعة الأيام، ولمجموع ما ذكر، ولم يكن من الممكن تحقيق هذا التوزيع الشامل للاستواء من دون استعمال هذا التثليث القرائي.

ومن أمثلة ذلك أيضًا الكلام على إعراب قوله تعالى:﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (سورة الأنعام:٢٣).

إذ رويت كلمة ربنا بالإعرابات الثلاثة:

النصب في قراءة حمزة والكسائي على تقدير النداء، أي: يا ربنا، أو تقدير فعل: أمدح، والله يا ربنا، أو والله نمدح ربنا ونقدسه.

والجر في قراءة باقي السبعة على أنها نعت لله تعالى، أو بدلا، أي والله الذي هو ربنا.

ج- والرفع في قراءة عكرمة على تقدير أن الله مبتدأ وربنا خبره، والتنوع هنا محقق لما سميناه بتزاحم المعاني، واكتنازها، وانجماعها لتحقق أكبر قدر ممكن من المعاني من مثل:

أولًا - تحقيق الاعتراف بالإقبال على الله تعالى، والانكسار بين يده على تقدير النداء.

ثانيًا - تحقيق التمجيد لله سبحانه والدينونة له بتقدير امتداحه والثناء عليه.

ثالثًا- تحقيق كمال التوحيد بالاعتراف له بالألوهية، التي هي استحقاق بالعبودية وحده، وبالربوبية التي هي الاعتراف له بفضله ومنته وتربيه للخلق، وهو المعنى المستفاد من الإعراب المعتمد للنعت والبدلية.

رابعًا - الاعتراف بالإيمان والتعليل للابتعاد عن الشرك في قراءة من قرأ بالرفع، أي أننا لسنا مشركين، لأننا نقر على أنفسنا أن الله ربّنا.

والتثليث القرائي هنا، بما هو وجه إعجازي يحقق هذه المعاني جميعًا، فيحقق مطالب الاعتقاد والعبادة والأخلاق باجتماع الإعرابات - يعني أن لغة الذكر الحكيم ما تزال غضة طرية- تحتاج إلى مواصلة الجهد في تتبع ظواهرها، وتفسيرها خدمة لهذه المعجزة الخالدة الباقية على امتداد الزمان.